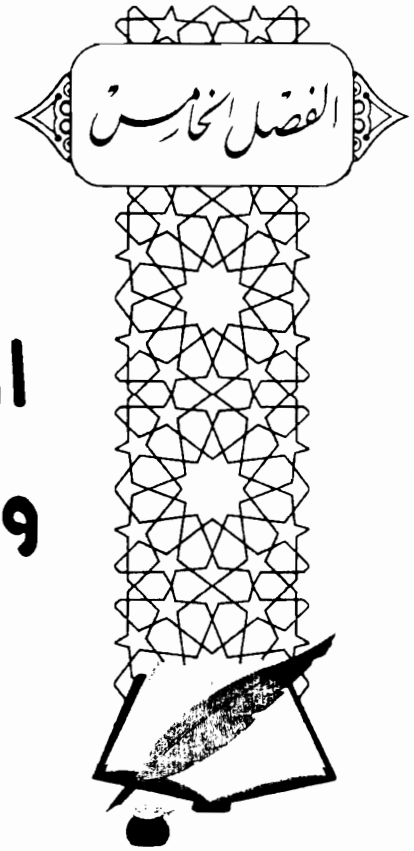

القصور والحصون والخيام والحجرات

الفصل الخامس

القصور والحصون والخيام والحجرات

عظيم جداً هذا القرآن الكريم الذى أنزله رب العالمين.. وفيه من أمور وقضايا الحاضر والماضى والمستقبل، ما نراه وما لا نراه . وعظيم أيضاً هذا الكتاب الكريم الذى حدثنا عبر أياته وسوره عن أماكن كثيرة أرتبطت ليس فقط بالأنبياء والرسل وأصحاب القصص والبلاد والمدن والرسالات وما جاء بشأنها وأصحابها وأتباعها من حكم وتعاليم ومواعظ ونتائج ما بين محسن ومسئ، وما بين كافر ومؤمن، بل وشملت هذه الأماكن التى جاء ذكرها فى القرآن الكريم أيضاً ما ارتبط بحياة الإنسان فوق الأرض التى نعيش عليها منذ أن خلق الله آدم عليه السلام وإلى يوم أن تقوم الساعة.

هذه الأماكن لم تُذكر وحدها، بل جاءت فى سياق الآيات والسور القرآنية وما تناولته من قضايا وتعاليم ونصائح وقيم ومبادئ. أوردها مولانا الكريم رب العزة سبحانه. هدفها سعادة الإنسان الذى ما أن استقام على الصراط المستقيم وفق ما جاء بالقرآن الكريم بضرورة الإيمان بالله وباليوم الأخر وبالقدر خيره وشره وبالملائكة والرسل والأنبياء سوف يعيش بالفعل حياة سعيدة وهانئة، بل وينتقل إلى حياة أخرى أكثر سعادة وأمنا فى الدار الأخرة.

وفى هذا السياق واستكمالاً لمشوارنا مع الأماكن المشهورة والتى جاء ذكرها في كتاب الله الكريم، نسوق أشهر الأماكن التى ارتبطت بحياة الإنسان فوق الأرض وتنقلاته ومعيشته ووسائل حمايته واستمراره فى الحياة.

ولدينا في هذا الاطار أكثر من عشرة أماكن سوف نسوق حديثاً مفصلاً عنها وفق المنهج السابق والذى اعتمدناه سوياً، والقائم على بيان الآية أو الآيات التى جاء بها هذا المكان أو ذاك..ثم التعرف على معناه ومغزاه، وأهميته بالنسبة بالإنسان المرتبط به.

ولسوف يمر علينا فى هذا السياق الإشارة إلى بعض الأماكن التى تأخذ صفة العموم والتى لا تزال تتردد بيننا لفظاً ومعنى، كما سوف يمر علينا أيضاً حديث خاص ببعض الأماكن المتميزة والتى اقتصرت على زمن أو مجتمع دون غيره، وهى التى بطبيعة الحال تختلف من مجتمع الحضر عن مجتمع البدو أو أهل الصحراء.

وربما تكون هذه الأماكن بيننا الآن ولكنه نظراً لاختلاف الأزمنة وكذلك اللغة فى بعض الأحوال لا نشعر بها أو تستوقفنا.

وعلى أية حال فلن نفصح عن هذه أو تلك إلا فى حينه وذلك لضمان سلامة المتابعة من خلال ما سوف نفسره عن أكثر من عشرة أماكن ارتبطت بحياة الإنسان ومعيشته وحمايته وراحته ونومه، ورزقه وعمله، فتعالوا نتابع سويًا بقية هذا الحديث وبالتفصيل المطلوب.

** الخيام .. أولى أماكن الإقامة:

وفقا لتسلسل تاريخ حياة البشر فوق سطح الأرض .. ووفقاً لما أخبرنا به ربنا سبحانه وتعالى وكذلك المؤرخون والمفسرون. نجد أن الخيام كانت من أولى الأماكن التى ارتبطت بحياة الإنسان ومعيشته وإقامته فوق هذه الأرض من بعد خروج آدم عليه السلام من الجنة وهبوطه إليها، وإن كانت البداية الأولى وكما نعرف قد ارتبطت أكثر بالمغارات والكهوف، حتى عرف الإنسان كيف يصنع وكيف يخترع، وبالتالى جاء زمن استخدم فيه بنو البشر الخيام التى كانوا يصنعونها من الصوف والوبر والقماش وأوراق الشجر كأماكن يقيمون بها لتحميهم من البرد ومن حرارة الشمس.

والعجيب، بل والمثير للدهشة أنه ورغم مرور آلاف السنين، بل إن شئت قل الملايين من السنين على نزول أبو البشر إلى الأرض..، ورغم ما فيه ذريته الآن من رفاهية وتقدم وحضارة، إلا أنه لا يزال هناك الملايين من هؤلاء البشر من الذين يستخدمون تلك الخيام وفى نفس الأغراض.

بل ومن العجيب أيضا أن هذه الخيام قد أصبحت وإلى اليوم الملجأ والملاذ من البرد وحرارة الشمس والأخطار حتى فى المجتمعات الراقية.. خاصة وقت حدوث الأزمات كالزلازل والحرائق، وربما ستظل كذلك إلى أزمنة أخرى قادمة لا يعلم مداها إلا الله الذى خلق الإنسان وما يفعل.

وإذا ما تركنا هذا الكلام المرسل لندخل سوياً إلى مكان هادئ نفتح فيه كتاب الله وقرآنه العظيم كى نبحث عن الخيام فوق أوراقه سوف نكتشف أن الله تعالى قد ذكر الخيام فى هذا الكتاب الكريم مرة واحدة فى سورة الرحمن وفى الآية (٧٢) وفى قوله تعالى: ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾.

ومن دواعى العجب أن الله تعالى قد ذكر الخيام مرتبطاً بالمكان الذى سوف تقيم فيه هؤلاء الحسناوات يوم القيامة، وهى بلا شك نفس الخيام، التى كانت فى مقدمة الأماكن التى استوعبت الإنسان، وأقام بداخلها قبل أن يعرف البناء ومواده وأصوله.

إذ من المعروف أنه وبعد ما نزل آدم من الجنة.. علمه الله تعالى أن ينسج بعض الأقمشة وأن يذبح الحيوانات، ومن هذه المنسوجات البسيطة ومن جلود هذه الحيوانات تمكن الإنسان الأول من أن يجعلها بحق المادة الخام التى استخدمت فى إنشاء الأماكن التى أقام بها بعد ما خرج من الكهوف، وكانت تلك هى الخيام، التى نراها كثيراً فى مساكن أهل الصحراء، وكذلك أيام الكوارث والحرائق والمصائب التى تصيب بعض الأقوام هنا أو هناك.

وخيام الجنة التى سوف يقيم بها هؤلاء الحور العين، تختلف بلا شك عن تلك الخيام التى يصنعها الإنسان، ولقد ذهب المفسرون مذاهب كثيرة فى تحديد نوعية هذه الخيام، حتى تليق بتلك الحسناوات من الحور العين.. فيقول الإمام الطبرى فى حديثه عن هؤلاء الحسناوات وعند تفسيره لهذه الآية: إن هؤلاء الحسان بيض محبوسات فى البيوت على أزواجهن، فلا يردن غيرهن، وتلك من النعم التى أنعم الله بها على عباده يوم القيامة.

فى حين يرى بعض المفسرين الآخرين من أمثال ابن كثير أن الله تعالى سوف يخلق خياماً من لؤلؤ وياقوت كى يقيم بها حسناوات الجنة، بل وذكر أحمد بن

محمود النسفى فى تفسيره للآية «الحور المقصورات فى الخيام»: أى مخدرات يقال امرأة قصيرة ومقصورة أى مخدرة فى خيام من الدر المجوف.

وما نود أن نشير إليه نحن فى هذا السياق أن الحديث عن الخيام بلا شك سوف يختلف طعمه ومعناه ووجوده مرتبطاً بالدنيا والآخر مرتبط بالآخرة والجنة.

ويبدو أن هؤلاء المفسرين قد حاولوا التمييز بين الخيام فى كل من الدنيا والتى يصنعها الإنسان وبين خيام الجنة والتى يخلقها الله تعالى خصيصاً لهؤلاء الحور العين، فقالوا إن خيام الجنة من الدر فى مقابل خيام الدنيا من القماش!!

وعلى أية حال.. فإننا قصدنا من وراء هذا الحديث بيان نوع من أنواع الأماكن المشهورة والتى جاء ذكرها فى كتاب الله وارتبطت بمكان إقامة بنى البشر فوق الأرض، ثم تكريم هذا المكان واقامته فى الجنة مع عدم علمنا بما سوف يكون عليه فى جنات الله تعالى، لأن كل شىء سوف يتغير هناك بما لا نعلم نحن وما يدخل فى علم الله تعالى .. ويكفيه شرفاً كمكان إقامة للإنسان أن جاء ذكره فى كتاب الله تعالى.

** البيوت.. فى كتاب الله العزيز:

وننتقل فى حديثاً عن الأماكن المشهورة فى حياة الإنسان إلى نوع آخر من هذه الأمكنة وذلك وفق تسلسل تطور الحياة فوق الأرض ووفق مشيئة الله تعالى.الذى ألهم هذا الإنسان وبعد فترة زمنية طويلة عاشها متنقلاً بين الكهوف والأشجار والخيام، أن يعيش داخل بيوت يقيمها بنفسه ويستخدم فى إقامتها ما توافر أمامه من مواد سواء حجرية أو طينية، ثم تطورت فى عصرنا هذا إلى مواد أسمنتية ورملية.

ونعرف جميعاً وكما أنبأنا بذلك علماء الآثار والتنقيب أن المبانى التى أقام بها الإنسان قد شهدت تطورات متعددة على مدى العصور الماضية وحتى وصلت إلينا بشكلها الحالى سواء من حيث الارتفاع أو الاتساع أو الضيق.

ليس هذا فقط، بل وأخبرنا أساتذة هذا العلم ورواده أن المبانى التى أقام بها الإنسان قد اختلفت من عصر إلى عصر بل ومن بيئة ومن مجتمع إلى آخر.. وما زالت سمة الاختلاف هذه القائمة إلى يومنا هذا.

وكان علينا من أجل استكمال الحديث عن هذه الأمكنة ضرورة العودة من جديد إلى كتاب الله لنعرف موقع هذه البيوت فى هذا الكتاب الكريم وما ارتبط به من تفسيرات أوردها لنا كبار المفسرين.

وفى معجم ألفاظ القرآن الكريم هناك حديث طويل ومتنوع عن هذه البيوت .. منها ما ارتبط بكونها مساجد.. لارتباطها بالشعائر التى تؤدى من أجل عبادة الله.. ومنها ما ارتبط فعلاً بإقامة الإنسان كمسكن له. هذا النوع من البيوت جاء ذكره فى كتاب الله وبهذا المعنى فى سورة الأعراف وفى الآية (٧٤) فى قوله تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً﴾.

ونلاحظ هنا أن الآية الكريمة قد حددت لنا نوع هذه البيوت وهى من الحجارة المنحوتة فى الجبال. كما جاء ذكر البيوت بنفس هذا المعنى فى الآيات (٨٧) من سورة يونس و(٨٢) فى سورة الحجر، (٦٨) و (٨٢) فى سورة النحل، (٢٧)و(٢٩) و(٦١) فى سورة النورو (١٤٩) فى سورة الشعراء. ثم ذكر لنا الله تعالى لفظ البيوت وبشكل مباشر كمكان يقيم فيه الإنسان مع ضرورة المحافظة على من فيه. وذلك فى حديث صريح جاءفى الآية (١٨٩) مكرر فى سورة البقرة. وفى قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾.

ونعم القول قول ربنا العظيم الذى يعلِّم الناس التربية وأصول دخول المنازل التى يقيم بها الناس حفاظاً على مشاعرهم وخصوصيتهم، كما جاءت كلمة البيوت بهذا المعنى أيضاً فى الآية (١٥) فى سورة النساء و(٤١) فى سورة العنكبوت. ثم جاءت هذه الكلمة أيضا مضافة إلى الآباء والإخوة والأخوال والأعمام والأمهات والخالات والعمات فى سورة النور الآية (٦١) .

ليس هذا فقط .. بل إن كلمة البيوت ونظراً لأهميتها فى حياة الناس وارتباطها بمعيشتهم واستقرارهم فقد جاء ذكرها أيضا فى سور وآيات أخرى.. من ذلك ارتباطها ببيوت النبى الكريم وذلك كما جاء قوله تعالى فى سورة الأحزاب الآية (٥٣): ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾. كما جاءت نفس الكلمة وبألفاظ

أخرى فى كتاب الله وفى سور وآيات كثيرة مثل كلمة «بيوتكم» في سورة آل عمران الآية (٤٩)و(١٥٤)و(٨٧) يونس و(٨٠) النحل و(٢٧) و(٦١) فى سورة النور، وكذلك لفظ «بيوتكن» فى الآية (٣٣)و(٣٤) فى سورة الأحزاب، ولفظ «بيوتنا» فى الآية (١٣) فى سورة الأحزاب ولفظ «بيوتهم» فى سورة النمل الآية (٥٢) .. وفى سورة الزخرف الآيتين (٣٣)و(٣٤) والآية (٢) فى سورة الحشر.. ولفظ «بيوتهن» الآية فى (١) فى سورة الطلاق.

ولو أخذنا أى سورة كريمة من هذه السور المذكورة والتى جاء بها لفظ البيت أو البيوت لنعرف معناها سوف نجد أن هناك مباراة تفسيرية بين العديد من المفسرين فى تناولهم لهذا المكان، ولقد اخترنا على سبيل المثال الوقوف على تفسير الآية (١٨٩) مكرر فى سورة البقرة والتى جاء بها ذكر البيوت صراحة كمكان ارتبط بإقامة الإنسان، والتى يقول فيها رب العالمين ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

ويقول الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوى فيما كتبه عن تفسيره لهذه الآية خاصة ما ارتبط بالبيوت: إن هذا القول الكريم نهى لجماعة المسلمين عن عادة كانوا يفعلو نها فى الجاهلية، وهى أنهم كانوا إذا عادوا من حجهم أو أحرموا لا يدخلون من أبواب بيوتهم، بل كانوا يدخلون من نقب ينقبونه فى ظهور هذه البيوت.

وأضاف: وأخرج البخارى عن أبى إسحاق قال: سمعت البراء رضى الله عنه، يقول نزلت هذه الآية فينا . كانت الأنصار إذا حجوا فجاءوا لم يدخلوا من قبل أبواب بيوتهم ولكن من ظهورها، فجاء رجل من الأنصار فدخل من قبل بابه فكأنه عير بذلك فنزلت الآية السابقة. (١)

ومن حيث اللغة فإن كلمة بيت وجمعها بيوت.. مصدرها كلمة بات بياتاً ومبيتاً، ومباتاً بمعنى أدركه الليل فنام أو لم ينم. والبيت هو المسكن.(٢)

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم - سورتى الفاتحة والبقرة للإمام الدكتور محمد سيد طنطاوى.
(٢) المعجم الوجيز.

** القصور .. نوع آخر من الأماكن:

ووفقاً لقاعدة التطور البشرى فوق الأرض التى أقام بها الإنسان بعد نزول أبيه آدم عليه السلام فقد أخذ الإنسان يطور حياته وكذلك أماكن إقامته، حتى أصبح له ولغيره من علية قوم وممن يحكمونه أماكن خاصة بإقامتهم من أجل أن تميزهم عن غيرهم، إذ عرفنا من قبل ووفقاً لهذه القاعدة أن الله تعالى قد خلق الناس جميعاً سواسية وبلا تفرقة، ولكنه مع ذلك قد فضل بعضهم على بعض، وهذا التفضيل جاء بدرجات حددها رب العالمين وأخبرنا بها فى كتابه العزيز.

ويبدو أن هذا التميز فى الدرجة لم يتوقف فقط على المال والعلم، بل امتد كذلك إلى أماكن إقامة الإنسان، رغم أننا وآباءنا جميعاً ومنذ خلق الله السموات والأرض كنا نعيش سويًا فى الكهوف وفى الخيام فيما بعد.

ولكن يبدو أن حالة التميز التى أشار إليها الله تعالى فى كتابه العزيز قد التفت إليها الإنسان وأخذ يطبقها حتى فى أماكن إقامته.

ولقد تطورت هذه النظرة المتميزة فى إقامة الإنسان إلى أن وصلت إلى ذروتها فى بنائه للقصور العالية والقلاع المنيعة.

وما نود أن نشير إليه فى هذا السياق أن لفظ القصر أو القصور قد تغير مغزاه من عصر لآخر وفق ما ارتبط بهذا العصر من تطورات سواء فى مواد البناء، أو فى اختيار أماكن الإقامة، أو تمتع الإنسان بالمناصب واقترابه من السلطة أو السلطان.

ليس هذا فقط، بل إن لفظ القصر والدال على تميز المكان الذى يقيم فيه شخص ما، قد تغير كذلك بتغير الزمن ، ومدى ما حصل عليه الإنسان من نصيب وافر من العلم والتطور، حتى أننا نجد أن لفظ أو كلمة القصر كمكان مشهور يدل على مكان إقامة شخص ما مميز عن غيره قد اختلف من زمن لآخر ومن مكان لآخر أيضاً.

المهم هنا أن يظهر أصحاب هذه القصور بأنهم متميزون فى أماكن إقامتهم، وهذا التميز يبدو فى كثير من الأحيان فى اختيار المكان ونوع البناء واتساعه أو ضيقه، ليس

هذا فقط، بل إن القصر كمكان إقامة لإنسان ما قد ظل حلماً يراود الكثير من البشر وفى مجتمعات مختلفة. كما ظل أيضاً رمزاً من رموز التقدم والآبهة للإنسان وسط قومه دون غيره، وعلى هذا الأساس فقد ارتبطت نظرة الناس وتقييمهم لغيرهم بالمكان الذى أصبحوا يقيمون فيه. إضافة إلى ما كانوا يلبسونه من ثياب، وكثيراً ما نجد هذا التميز منتشراً فى طبقات الحكام وأصحاب النفوذ من كبار التجار، وكان ذلك من السمات المميزة لتاريخ بنى البشر وفى كل المجتمعات تقريباً، وعلى درجة الخصوص حين عرف الناس طريقهم إلى التطور والاستفادة مما حولهم من إمكانيات سواء بشرية أو طبيعية.

وما توصلنا إليه هو ما أشار إليه كتاب الله العزيز إذ يؤكد معجم ألفاظ القرآن الكريم أن كلمة قصر أو قصور معناها فى كتاب الله البيت الفخم الواسع، وجاءت بهذا المعنى كمكان مشهور فى هذا الكتاب الكريم فى سورة الحج وفى قوله تعالى: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ الآية (٤٥).

كما جاء ذكر هذا المكان على سبيل الجمع ممثلاً فى كلمة «قصور» فى سورة الأعراف الآية (٧٤) واللفظ فى الآية (١٠) فى سورة الفرقان وذلك فى قوله تعالى: ﴿تتخذون من سهولها قصوراً﴾ أى بيوتاً فخمة وواسعة.

وكما سبق وذكرنا فإن مفهوم الفخامة والسعة قد اختلف من مكان إلى آخر ومن زمن إلى آخر أيضاً، وعلى ذلك فما يراه غيرنا فخماً فى مجتمع ما، نراه نحن وهو معنا أقل فخامة، ذلك لآن هناك ما هو أفخم منه وأحدث .

إذن القياس يظل مرتبطاً بمدى مقدرة الإنسان على التنقل والتبصر من أجل أن يتمكن من المقارنة.

وهناك العشرات من المفسرين الذين شغلوا أنفسهم بذكر العديد من التفاصيل وربما غير المرغوب فيها خاصة فى وصفهم لأحد القصور مثل قصر ملكة سبأ مثلاً، أو قصر فرعون، أو بيت أو دار قارون أو غيره من الأماكن التى ارتبطت بشخصيات بعينها ذكرها القرآن الكريم، وكذلك التاريخ.

ومن أجل معرفة ذلك وأكثر تعالوا نعيش لحظات مع تفسير الإمام الطبرى والخاص بالآية التى يقول فيها رب العالمين: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ الآية (٤٥) فى سورة الحج، حيث قال الإمام الطبرى فى هذا التفسير: كم من قرية أهلكناها وأهلها وهم يعصون الله ويعبدون غيره، وقد باد أهلها وخوت من سكانها وتساقط جدرانها على سقوفها، وكم من قصر رفيع قد خلا من سكانه بما أذقناهم من العذاب. (١)

وإذا ما أعدنا قراءة هذا التفسير سوف نكتشف أن هؤلاء القوم الذين أهلكهم رب العالمين كانوا بالفعل يقيمون فى قصور عالية وكانوا بذلك يتميزون عن غيرهم من بنى قومهم مما كان يدل كذلك على وضعهم المتميز بين هؤلاء القوم.

هذه القصور العالية لم تغن عنهم من عذاب رب العالمين، بل كانت كذلك خير شاهد على الانتقام لما بدر منهم من كفر وابتعاد عن الصراط المستقيم.

والقرآن الكريم قد حكى لنا عن بعض هؤلاء القوم الظالمين الذين كانوا يسكنون هذه القصور ظناً منهم أنها سوف تغنيهم عن عذاب رب العالمين، ومن هؤلاء .. هود، وعاد، وثمود، وفرعون، أولئك الذين تهاوت قصورهم وتهدمت فوق رءوسهم وربما أمام أعين بقية أبناء قومهم كى يكونوا عبرة لهم ولغيرهم من الذين يبتعدون عن منهج الله وطريقه المستقيم.

** الغرف .. والغرفات والحجرات:

بعد ما انتهينا من حديث المكان الذى يقيم فيه الإنسان سواء كان هذا المكان خيمة أو بيتاً أو قصراً، كان لا بد لنا من التوقف أمام ما يشتمل عليه هذا المكان من أماكن أخرى يستخدمها الإنسان، وكلها قد جاء ذكرها أيضاً فى القرآن الكريم .. ومن أهم هذه الأمكنة وكما نعلم جميعاً.. فهى الغرف أو الغرفات وهى جمع غرفة أو الحجرة وجمعها الحجرات، ومعناها من حيث المساحة والمكان: هو ذلك الحيز الذى نختاره داخل بيوتنا من أجل تخصيصه إما للنوم أو للطعام أو للجلوس.

(١) مختصر تفسير الطبرى - الجزء الأول.

وتختلف هذه المساحة من بيت لآخر كما يختلف الشكل والتأثيث وفقا لإمكانات كل صاحب بيت وقدراته المادية.

وقد يتساءل البعض: وهل يوجد داخل الخيام أيضاً غرف وحجرات؟ والإجابة بطبيعة الحال: نعم.. ولكن ليست غرفاً بالمعنى المتعارف عليه ولكنها مجرد أماكن مستورة أو منفصلة داخل الخيمة، ويتم تخصيصها وفق حاجيات صاحب الخيمة وأسرته.

ومع التطور يحاول كل إنسان داخل منزله أو بيته أن يضع تصورات خاصة لهذه الغرف، وكذلك استخداماتها. كما يحاول إمدادها بكل ما يراه لازماً له ولغيره من أهل بيته من أدوات .. حتى رأينا على سبيل المثال الكثير منا خاصة فى المناطق الحارة يمد هذه الغرف بالمكيفات الهوائية وكذلك المصابيح الكهربائية والوسائد والأسرة. إضافة إلى بعض المكونات التى سوف نشير إليها كذلك فى حينها والتى جاء ذكرها فى القرآن الكريم وهى ترتبط بالإنسان وحياته داخل منزله وخارجه.

وكما كان منهجنا من قبل مع كل هذه الأماكن، فإننا سوف ندخل معها إلى صفحات كتاب الله وقرآنه العظيم من أجل اكتشاف موقعها وكذلك تحديد أهميتها.

ونبدأ أولاً بالحديث عن الحجرة والحجرات، ومعناها وفق ما جاء فى معجم ألفاظ القرآن الكريم ذلك المكان من الدار الذى يحاط بجدران، وجاء هذا اللفظ بهذا المعنى فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ الآية (٤) من سورة الحجرات.

والمقصود هنا أصحاب رسول الله الذين كانوا ينادونه من خارج بيته وهو داخل حجراته مع زوجاته، ولقد أرشدهم رب العالمين لما فى هذا السلوك من عيب تجاه هذا النبى الكريم الذى كان يستاء من هذا الفعل الصادر منهم.

ليس هذا فقط، بل ولقد جاء توجيه رب العالمين فى هذه الآية ليشمل كل المسلمين الذين يعلمهم الله التأدب وحسن التعامل مع غيرهم، وخاصة وهم داخل حجراتهم، ومنازلهم.

وفى تفسيره لهذه الآية الكريمة قال الإمام الطبرى: إن الذين ينادونك يا محمد من وراء حجراتك أكثرهم جهال بدين الله، واللازم لهم من حقك وتعظيمك، ولو أن هؤلاء الأعراب الجفاة صبروا، فلم ينادونك حتى خرجت لهم لكان خيراً لهم عند الله، لأن الله قد أمرهم بتوقيرك وتعظيمك.

أما الإمام النسفى فقد حدثنا عن سبب نزول هذه الآية وقال: إنها نزلت فى وفد من بنى تميم، وأن المقصود بالوراء: الجهة التى يواريها عنك الشخص بظله من خلف أو من قدام، أما الحجرة فهى الرقعة عن الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها، والمراد فى هذه الآية حجرات نساء النبى وكانت لكل منهن حجرة. (١)

هذا عن الحجرة أو الحجرات، أما بخصوص ما جاء فى كتاب الله عن الغرفة والغرفات.. فتعالوا معنا أيضاً نكمل المشوار فوق صفحات كتاب الله لنعرف عنها الشىء الكثير، ومما يثير الدهشة والعجب أن كلمة غرفة وغرفات ارتبطت فى كتاب الله بمنازل المؤمنين يوم القيامة، فسبحان الله العظيم فيما أنزل إلينا من كتاب خالد. ذلك الكتاب الذى لم نعثر فيه عن معنى لكلمة الغرف بما يؤدى معنى ما نعرفه عنها الآن، وبحيث تتساوى مع كلمة الحجرة أو الحجرات، واستخداماتها المعروفة لدينا وأيضاً وفق ما جاء بشأنها فى القرآن الكريم.

إذن الغرف هنا معناها المقصود فى القرآن الكريم هو المنازل العالية فى الجنة، وجاء ذكرها فى القرآن الكريم وفق هذا المعنى فى الآية (٢٠) مكرر فى سورة الزمر وفى قوله تعالى: ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ . وجاءت بلفظ «غرفاً»: فى قوله تعالى: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الآية (٥٨) فى سورة العنكبوت، وبلفظ الجمع «غُرفات» بمعنى المنازل العالية فى الجنة فى قوله تعالى" ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ الآية (٣٧) فى سورة سبأ.

ومعنى ذلك أنه يجب علينا حين نتحدث عن مكونات البيوت والمساكن والقصور، أن نذكر كلمة الحجرة أو الحجرات بدلاً من الغرفة والغرفات، إلا إذا كنا

(١) تفسير النسفى - مرجع سابق.

نردد الكلمة الأخيرة على سبيل التمنى بكونها غرف الجنة، والتى نتمناها جميعاً. وندعوا أن نكون من سكانها يوم القيام وبعد حساب يسير. آمين.

** المضاجع .. حيث ينام الناس:

جاءت كلمة المضاجع فى كتاب الله كى تعبر عن أماكن راحة بنى البشر، كما ارتبطت فى الوقت نفسه بكلمة أخرى جاء ذكرها فى كتاب الله وهى كلمة سُرر أو أَسِرَّة، وهى كلها أشياء يستلزم وجودها فى حياة الإنسان داخل بيته وحجراته وقصوره، وحتى فى الخيام، وتلك من عظمة هذا الكتاب الكريم وعظمة ما ذكره لنا رب العالمين عن كل ما يرتبط بحياة الإنسان حتى أماكن راحته ونومه ويقظته، وبل وبعض الآنية التى يستخدمها فى الدنيا وما سوف يكون مثلها فى الآخرة.

ليس ذلك فقط، بل لقد شمل حديث القرآن الكريم عن حاجات بنى البشر أشياء أخرى مثل الأرائك والفُرش المرفوعة ، وكلها ترتبط فى حقيقة الأمر بالمضاجع أو بالوسائل التى تحقق راحة الإنسان فى حياته خاصة داخل بيته.

إذن نحن ومن خلال هذه الفقرة سوف نتناول المضاجع والسرر والأرائك والفرش المرفوعة، باعتبارها شىء واحد أو عدة أشياء تصب فى خانة وسائل تحقيق راحة الإنسان خاصة داخل بيته حين يلجأ إلى الراحة.

ونبدأ بالمضاجع التى ذكرها الله تعالى مرة واحدة فى سورة السجدة وفي قوله تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ الآية (١٦) .

ومما لاحظناه بخصوص لفظ المضاجع كمكان مشهور ارتبط براحة الإنسان سواء بالليل أو بالنهار أنه لفظ شامل وجامع لكل معنى الراحة بالنسبة للإنسان أكثر من ارتباط مكان آخر خاصة داخل البيت. وجاء ذكره فى القرآن الكريم مثل السُرر والفرش المرفوعة والأرائك، ولذلك نرى أن ربنا سبحانه وتعالى قد ذكر لنا فى كتابه العزيز أن هناك طائفة من الناس من الذين يتفانون فى عبادة ربهم .. تخاصم

أجسامهم مضاجعهم فى الليل ويتفرغون لعبادة ذلك الرب العظيم بعدما هجروا النوم وتفرغوا لصلاتهم وترديد اسم ربهم الأعلى فى السر وفى العلن، وهم حيث هم فيه يدعون ربهم خوفاً من عقابه وطمعاً فى عفوه ورحمته.

وفى تفسير الإمام النسفى لهذه الآية يقول : تتجافى أى ترتفع وتتنحى أجسامهم عن الفُرش والمضاجع التى فيها ينامون، وقد أذن الله لهم بمناجاته وجعلهم من أهل وسيلته ثم مدحهم لهم بقوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾.

وفي تفسير الجلالين بيان لمعنى المضاجع: وهى مواضع الاضطجاع بفرشها لصلاتهم بالليل تهجداً.

ولو نظرنا حولنا فيما يخص أنواع هذه المضاجع سوف نراها ممثلة فى الأرائك.. وجمعها أريكة وهى التى جاء ذكرها فى القرآن الكريم فى سور وآيات سوف نستعرض أرقامها وبعض ما جاء بشأنها. وذكر لنا معجم ألفاظ القرآن الكريم أن الأرائك معناها الأسرة أو السرر، وأن هذه الأرائك جاء ذكرها فى كتاب الله تعالى وفى قوله تعالى :﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ﴾ الآيات: (٣١) فى سورة الكهف و(٥٦) فى سورة يس و(١٣) الإنسان و(٣٣)،(٣٥) المطففين.

ثم جاء فى كتاب الله كلمة الأريكة أو الأرائك بلفظ آخر ولكنها تؤدى نفس معناها ووظيفتها ونعنى بذلك لفظ «السُرر».. ومعناها لغوياً: مكان مرتفع عن الأرض وفوقه وسادة من قماش أو قطن أو أى حشو آخر. وتُعتبر فى عرف المضاجع من أهمها وأشهرها لدورها فى حماية جسم الإنسان فى أثناء نومه لأنها أداة يرتفع به النائم عن سطح الأرض خوفاً من البرودة أو الحرارة.

وفى معجم ألفاظ القرآن الكريم جاء ذكر كلمة «سُرر» فى الآية (٤٧) فى سورة الحجر واللفظ فى الآية (٤٤) فى الصافات والآية (٢٠) فى سورة الطور و(١٥) فى الواقعة و(١٣) فى الغاشية.

كما جاءت بلفظ «سُرراً» فى سورة الزخرف فى الآية (٣٤) .. فى قوله تعالى:

﴿وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴾ وكما سبق وذكرنا فإن هذا المعجم يؤكد لنا أن لفظ «السرر» مفرده سرير.. ومعناه ما يجلس أو يضطجع عليه.

ثم يأتى المعنى أو اللفظ الثالث والمساوى للمضاجع والمذكور فى كتاب الله والمتمثل فى لفظ الفُرش المرفوعة.. كى يؤدى تقريباً نفس الوظيفة التى عليها المضاجع مع اختلاف بسيط من حيث شموليته للراحة، ويبدو ذلك بوضوح فيما جاء فى معجم ألفاظ القرآن الكريم الذى ذكر لنا أن كلمة فُرش هى جمع فراش. وجاء ذكرها فى قوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ الآية (٥٤) فى سورة الرحمن واللفظ فى الآية (٣٤) سورة الواقعة.

وفى حديث الطبرى عن تفسير هذه الآية قال: ولهم فيها فُرش مرفوعة بعضها فوق بعض، وفى الحديث النبوى الشريف، ارتفاعها كما بين السماء والأرض، وفى قول آخر لصاحب تفسير الجلالين: إن الفُرش المرفوعة هى ما غلظ من الديباج وحسن الظهائر من السندس.

** المصابيح .. عندما تضاء بنور الله:

من المؤكد أن الكهوف والمساكن والبيوت والقصور، وما بداخلها من حجرات لا يمكن أن ينعم بها الإنسان بدون أن تضاء بنور الله الذى خلقه لنا كى نعيش ليلاً بين جدرانه ونرى ما حولنا.. وقد متعنا الله رب العالمين بنوره قبل حلول ليله البهيم عندما نرى الشمس نوراً ودفئاً.

وحتى عندما يأتى ذلك الليل نرى فى السماء مصابيح نور الله المتمثلة فى قمره ونجومه، وكما نعرف جميعاً ووفقاً لقاعدة تطور البشرية فوق الأرض التى نزل فوقها أبونا آدم عليه السلام. فإن ذلك الإنسان قد ظل يعيش فى حلم الوصول إلى أسرار النار، والوقوف على أطوارها ووظائفها لا ليدفئ بها، بل كى تنير له طريقه وكل مكان يقيم به، ولقد ألهمه ربه إلى التعرف على طريق الوصول إلى هذه النيران، عندما بدأ أولاً فى استخدام الأحجار والتى ينتج عن احتكاك بعضها البعض شرارة ساهمت فى إشعال نيران بسيطة فى بعض أوراق الشجر اليابسة ثم فى أخشاب

الأشجار. وقد ظل هذا التطور مستمراً فى حياة الإنسان الأول لفترة طويلة حتى أبصره رب العالمين بما حوله من مواد أخرى يمكن أن تشتعل وتحقق له الدفئ والضياء والنور فى آن واحد.

وكما نعرف فقد بدأ هذا المشوار باكتشاف قدرة الماء المغلى على توليد الطاقة ثم الفحم والبترول والمياه والرياح وأخيراً محطات الطاقة النووية فى الاستخدام السلمى، وقد أصبحت كلها بالفعل وسائل ومواد تساهم فى إشعال المصابيح كى تنير حياة الإنسان سواء بالليل أو بالنهار، وكانت هذه المصابيح نفسها هى الطريق الممهد لحضارة الإنسان وامتدادها خارج نطاق الكوكب الذى نعيش فوقه، إذ قادته قدرته على اكتشاف أنواع من الطاقة إلى الخروج من كوكب الأرض إلى القمر وغيره من كواكب المجموعة الشمسية، ثم العودة مرة أخرى فى أمان وسلام، فسبحان من خلق هذا كله، وسخره لبنى البشر كى يضيئوا حياتهم فى الماضى والحاضر وفى المستقبل.

إذن نكتشف أن المصابيح كمصدر إضاءة ودفء للإنسان قد جاءت مكملة لنعم الله عليه فيما ارتبط بأماكن إقامته سواء داخل الخيام أو البيوت أو القصور، وتكريماً لهذه المصابيح ولدورها المضيء في حياة الإنسان فقد كرمها رب العالمين أيضاً بذكرها كمكان مشهور فى كتابه العزيز وفى قوله تعالى فى سورة الملك الآية (٥): ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾.

والمصابيح المقصودة هنا وفق ما أشار إليه ربنا فى الكتاب العزيز هى النجوم الساطعة ليلاً.. والتى تضيء للإنسان حياته، وكانت كذلك من قبل اكتشافه النار ومشتقاتها، وكذلك فى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ الآية(٣٥) فى سورة النور.

ولو أعدنا قراءة هذه الآية الكريمة سوف نعرف قيمة النور والمصابيح ليس فى حياة البشر فقط، بل فى حياة كوكب الأرض وما فيه.

وفى تفسيره لهذه الآية يقول الطبرى: مثل نور الله الذى أناره لعباده سبيل الرشاد فى قلوب المؤمنين مثل عمود القنديل الذى فيه السراج. هذا المصباح يوقد من زيت شجرة مباركة زيتونة، تشرق الشمس عليها وتغرب.

وبهذا التفسير نعرف أن الله تعالى قد علم الإنسان قيمة الزيت فى مجال الإضاءة وكيفية استخدامه من أجل أن تضاء له المصابيح.

ولقد ظل عقل الإنسان يبحث عن ذلك الزيت فى كل مكان سواء داخل الأشجار أو تحت الأرض حتى توصل إلى أعظم أنواعه وهو زيت البترول الذى أصبح أهم علامة من علامات تقدم الإنسان فى هذا العصر وفى غيره من العصور. ثم تمكن ذلك الإنسان وبخلاف اكتشافه لهذا الزيت من اكتشاف قوة الماء فى توليد الكهرباء التى ساهمت أيضًا فى إضاءة هذه المصابيح، بل وإضاءة كل ما حوله حتى أصبح يعيش فى النور ليلاً ونهاراً، وبالتالى فقد اصبح من المستحيل أن يعيش الإنسان بعيداً عن هذا النور الذى خلقه رب العالمين وخلق لنا منه ما نستمتع به إلى قيام الساعة. كما أنزل لنا فى الوقت نفسه القرآن الكريم لكى يضىء حياتنا فى الدنيا وفى الآخرة.. باعتباره نور على نور، يوفر لأتباعه الحياة الطيبة ويهديهم به إلى سواء السبيل وإلى الطريق المستقيم.

** السهول .. المزارع والمراعى والحياة:

وإذا ما تركنا كافة الأماكن المشهورة والتى جاء ذكرها فى كتاب الله والتى ارتبطت بأماكن إقامة الإنسان منذ خلقه الله وإلى اليوم، وهى التى استعرضناها جميعاً من قبل، كان لا بد لنا وأن نقف أمام أماكن أخرى جاء ذكرها أيضاً فى كتاب الله ولكنها هذه المرة ارتبطت ليس بإقامته وراحته، بل ارتبطت بما هو أهم، حيث كانت وما زالت هى مصدر رزقه ومعيشته. ونقصد بها السهول!!

وفى تعريف بسيط لمعنى السهول.. نجد أنها كل الأماكن المنبسطة فوق سطح الأرض والتى تجرى من حولها الأنهار وبالتالى فهى قابلة للزراعة والحياة والنماء.

وأعتقد أن كلمة السهول قد جاءت هنا بمعنى السهولة فى الحياة ويسرها لما يتوافر فيها من عوامل كثيرة أتاحت للإنسان حياة مريحة ورغدة وسط خيرات كثيرة سواء فى الزراعة أو فى المراعى!

ونحن نعرف جميعاً أهمية الزراعة بالنسبة لحياة الإنسان، ومدى سهولتها الآن فى ظل وجود هذه الثورة العلمية غير المسبوقة.

ولقد تحدث العديد من علماء الجغرافيا عن مسميات هذه السهول وصفاتها وملامحها وأشهر أماكنها فوق سطح الأرض .. فى مقابل حديثهم عن الصحارى والتى تمثل الضد بالنسبة لحياة الإنسان من حيث ندرة مياهها وخشونة الحياة فيها.

وبدون أدنى شك فقد توصل علماء الآثار وكذلك المؤرخون إلى أن أعظم حضارات الإنسان أقيمت بالقرب من ضفاف الأنهار وداخل هذه السهول، ولعل أشهرها قديما الحضارة الفرعونية والأغريقية والرومانية والفارسية وغيرها.

بل وما زالت هذه السهول هى مصدر الحضارات الحديثة بما تقدمه للإنسان من طعام وشراب هانئ وسهل وغزير.

وقديما كما يحكى بعض المؤرخين أن آدم عليه السلام حين نزل إلى الأرض، ظل يعيش لسنوات لا يعلمها إلا الله فوق سفوح الجبال، ثم انتقل بعدها سواء هو نفسه أو أولاده وأحفاده حيث السهول والأنهار الجارية التى كانت هى فاتحة خير على بنى الإنسان من أجل تعمير هذه الأرض والعمل على إقامة حضارات متنوعة هنا وهناك.

ولسنا فى حاجة إلى أن نكرر القول بأنه إذا ما ذكرت السهول، ذكرت المياة العذبة والأراضى الزراعية والمحاصيل المتنوعة والمعيشة الرغيدة، ثم بناء الحضارات.

ولقد كرم الله تعالى هذه السهول كأماكن طيبة ومشهورة فى حياة الإنسان بذكرها

فى كتاب الله العـزيز، مثلما جاء فى قـوله تعالى: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِـذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً﴾ الآية (٧٤) الأعراف.

وفى التفسير اللغوى لكلمة سهول وفق ما جاء فى معجم ألفاظ القرآن: أنها تعنى المنبسط من الأرض ليس فيه وعورة ولا غلظة.

ولقد جاءت هذه الآية ضمن حديث القرآن الكريم عن نعم الله وفضله والذى آتاه لقوم ثمود الذين بعث إليهم رسولهم كى يرشدهم إلى طريق الله المستقيم.

ولا شك فى أن هذه النعم المرتبطة بسـهول الأرض لم يحظ بها قوم ثمـود أو عاد فقط، بل حظى بها كل الأقوام الذين عرفوا قيمة الحياة حول ضفاف الأنهار.

ولسوف تظل هذه القـيمة مسـتمرة إلى يوم القيـامة، أو حتى يريد الله لعبـاده غير ذلك، عندما تجـف الأنهار وتتحـول السهـول إلى صحارى برمـال صفـراء، وبالتالى يشمل التغيير كل بقاع الأرض.

ولن نغالى حين نقـول إن البشرية فى طريـقها إلى هذه المرحلة حـيث يسارع كل البشـر تقريباً مـن أجل المشاركة فى حـرب البيئـة والقضاء عـلى ما بها من الأشـجار والمحاصـيل، وبالتالى على ما بهـا من سمات حضـارية شارك فى صنعهـا على مدى تاريخه الطويل.

** الأودية .. أنواع من السهول الجيدة:

وإذا كان ربنا العظيم قـد ذكر لنا السهـول فى كتابه العـزيز كمكان مشـهور لعب دوراً مهماً فى حـياة الإنسان وبناء حضاراته على مر التاريـخ. فإن هذا الكتاب العزيز أيضـاً قـد حدثـنا كذلك عـن الأودية، وهى تلك الأمـاكن الخصـبـة الموجـودة داخل مجتمعـات بعينها. والتى يوجد أغلبها حول ضفاف الأنـهار، حيث المياه العذبة التى يستخدمها الإنسان فى الزراعة وفى الشرب أيضاً.

وصحيح أن القـرآن الكريم لم يذكر لنا واد خصب بعينه أو ذكـر لنا مكاناً مرتبطاً

به صراحة باسم الوادى أو الأودية، ولكنه فى نفس الوقت ذكر لنا بعض الأماكن التى قامت بها حضارات إنسانية ونعم أصحابها بالعيش الرغيد فى ظل ما أمدهم به الله تعالى من نعم كثيرة فى الزراعة والمياه والمعادن.

ولقد أشار ربنا سبحانه وتعالى إلى مثل هذه الأمكنة فى قصة عاد وثمود وفرعون وأقوامهم الذين كفروا بنعم الله فكان جزاؤهم عسيراً، إذ حرمهم مما كانوا يتمتعون به، فتحولت هذه الأراضى الخصبة وماؤها العذب إلى أراض جرداء وماؤها مالح!!.

ومن أشهر ما ذكره لنا القرآن الكريم فى هذا السياق ما آل إليه حال أصحاب السبت وأصحاب القرية التى كانت تعمل الخبائث من قوم لوط، وفى المقابل، كافأ رب العالمين أصحاب الإيمان من عباده الذين أقاموا فى هذه الأودية، وفتح الله عليهم وأمدهم بالخير الوفير ثم أرشدهم لتحقيق المزيد من التقدم فى حياتهم المعيشية وبناء الحضارات .وقد ضرب الله الكريم لنا أمثلة كثيرة لهؤلاء القوم المؤمنين.

إذن الأودية ومفردها واد هى الأماكن التى هيأها رب العالمين بما وفر لها من إمكانات طبيعية فى الماء والطقس كى تحتضن حضارات الإنسان عبر التاريخ الطويل.

ولدينا أمثلة عظيمة على هذه الأودية التى ما زالت قائمة إلى الآن ويعيش أهلها فى سلام وهناء ورغد، بعدما أقاموا للبشرية حضارات مهمة ساهمت فى إعلاء كلمة التوحيد والتنوير والتقدم.

ومن هذه الأدوية المعروفة لدينا جميعاً وادى النيل ووادى الفرات ووادى نهر الأردن، بخلاف أودية كثيرة أخرى تحدث عنها وبكل التفصيل المطلوب أساتذة الجغرافيا وعلماء الزراعة، سواء فى نطاق عالمنا العربى أو خارجه، وسواء ما هو موجود منها فى العالم القديم أو ما تم اكتشافه فى العالم الجديد.

فسبحان الله العظيم الذى هيأ لعباده من بنى البشر كل شىء طيب كى يتمتعوا به فى ظل رعايته وعبادته والسير فى طريق التقوى والإيمان بواحدانيته.

والقرآن الكريم ذاته قد أخبرنا بذلك وأكثر .. والسورة القرآنية الوحيدة والتى جاء بها ذكر الأودية بالمعنى الذى أشرنا إليه من قبل، هى سورة الرعد وفى الآية (١٧) حيث قال ربنا العظيم فى هذه الآية: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾.

وواضح هنا ذلك الربط العظيم بين خصوبة هذه الأودية وبين الماء العذب الذى أنزله رب العالمين، هذه الخصوبة، وتلك المياه، كانت بحق من أهم وسائل الإنسان وفى كل عصر من أجل الأرتقاء بحياته وبناء حضارته وقوته وحاضره ومستقبله.

وهناك آية كريمة أخرى فى سورة الفجر تبرهن أكثر على ما ذهبنا إليه بشأن الوادى والأودية وهو قول الله تعالى فى الآية (٩): ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾.

وهؤلاء القوم الذين أنعم الله عليهم بأن أسكنهم فى واد فسيح وبه كل مقومات الحياة الطيبة، وهم لم يكتفوا بذلك بل أخذوا يقتطعون الحجارة الصلبة من أجل استخدامها فى بناء بيوتهم وقصورهم، وقد ظنوا فيما بعد أن هذه الحجارة وتلك الصخورسوف تمنعهم من عذاب رب العالمين.

ويؤكد العالم الدكتور أحمد شوقى إبراهيم أن هؤلاء القوم كانوا يعيشون فى وادى الأردن حيث ما زالت توجد آثار قوم ثمود، وكذلك فى جبال طوروس جنوب الأناضول وشمال بلاد الشام أيضاً حيث توجد آثار أخرى تدل على معيشتهم فى هذه الأودية.

ثم جاء لفظ «الوادى» لثالث مرة فى سورة الشعراء وفى الآية (٢٢٥) حيث قال ربنا العظيم : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ والمقصود فى هذه الآية طائفة الشعراء من الذين يكون مقصدهم دائما الأودية والوديان الخضراء والتى يذهبون إليها بعقولهم ويهيمون بها على غير قصد فيمدحون بالباطل قوماً ويهجون آخرين بالكذب.

** مصانع .. المزيد من الرفاهية:

ولو أردنا تدبر حكمة رب العالمين فى خلقه لبنى الإنسان ، وكيف يسر وسير له حياته وفق مشيئته تعالى .. سوف نكتشف أن هذه الحياة مرت بعدة مراحل، وكان لكل جيل من الأجيال دور بارز فى كل منها.

ولقد عرفنا من قبل قصة الخلق ثم هبوط آدم عليه السلام إلى الأرض، وسعيه وأهله من أجل تعمير تلك الأرض، هذا التعمير الذى مر هو الآخر بمراحل متعددة بدأت بعدما استقر الإنسان فى مسكنه الآمن وتدبيره لوسائل معيشته المضمونة، وذلك وفق تدبير العزيز الحكيم.

ولما اطمأن ذلك الإنسان على هذه الحياة وسط الأرض الخضراء وعلى مقربة من الأنهار، انتشر أبناؤه فى الأودية والسهول الخصبة وكذلك فى الجبال والصحارى، وذلك بحثاً عن تحقيق المزيد من الآمال التى تضيف إليه الرفاهية والحياة الطيبة والأمل فى غد أفضل، ولذلك نراه بعدما علمه رب العالمين من لدنه علماً عظيماً مثل الزراعة والرعى، مؤكداً على استقراره فى الحياة داخل مساكن وبيوت وحجرات وقصور فارهة، نظر الإنسان فيمن حوله وأمامه ووراءه من أجل أن يؤكد وجوده فى هذه الحياة، ويضمن المزيد من الرفاهية والتقدم. ولم يكن أمامه من سبيل سوى إقامة المصانع، خاصة بعدما أرشده ربنا تعالى إلى المعادن وعلمه كيف يصهرها، ثم كيف يستخدمها فى تحقيق تلك الآمال.

ولقد عرفنا من قبل كيف أن الله تعالى قد أرشد عبده ونبيه الكريم داود عليه السلام إلى أماكن استخراج الحديد والنحاس، ثم واصل الإنسان بعد ذلك بحثه عن بقية أنواع هذه المعادن المطلوبة لإقامة حضارات فوق الأرض ، وكان سبيله لصهر هذه المعادن ثم استخدامها فى إقامة كل مشروعاته، هو بناء المصانع الكبيرة والصغيرة، حتى وصلت هذه المصانع إلى ما هى عليه الآن .. وقد أصبحنا نشاهد بالفعل المصانع من كل نوع وفى كل مكان.. وذلك من أجل تصنيع كل شىء، بدءاً من الإبرة إلى الصاروخ كما يقولون.

ورويداً رويداً شعر الإنسان بأهمية ما ينشئه من مصانع سواء فيما يخص المواد الخام الزراعية أو الصناعية أو المعدنية، كما أصبحت تلك المصانع تحمل إليه بشائر المستقبل باعتبارها من أعظم ما حقق للإنسان فى حياته ومعيشته من الخير والبركة والأمان، كما أصبحت فى الوقت ذاته عنوان الحضارات وأهم أسباب قيامها ونجاحها.

إن الله تعالى وبكرمه قد علم الإنسان ما لم يعلم فى كل شىء، كما صاحبت رحلة التعلم هذه.. رحلة بحث طويلة من أجل تحقيق عملية تحويل واسعة فى كل المجالات.

هذا التحول كان مكانه الطبيعى، تلك المصانع التى أصبح يقيمها الإنسان وفى كل المجتمعات وعلى مر كل العصور مع الفارق طبعاً فى درجة التقدم من حيث استخدام الآلات والأيدى العاملة والطاقة، وحجم هذه المصانع، والتى تطورت على مر هذه العصور ووفق ما تعلمه الإنسان من علوم ساهمت كثيراً فى هذا التطوير.

وإذا كان الله تعالى قد خلق لنا الزراعة وأدواتها وأرشدنا إلى كيفية الاستفادة منها من أجل بقائنا فى هذه الحياة، فإن الصناعة وما خلق الله من أجلها من معادن وغيرها من المواد الخام قد أصبحت بحق هى الأخرى صمام أمان الإنسان من أجل تعميره لهذه الأرض وإقامة حضاراته عبر كل العصور، وأيضاً مع اختلاف كبير أو صغير وخاصة فى التفاصيل .

ولا ننسى أن نشير فى هذا السياق إلى أن هذا الإنسان، قد حول هذه المصانع فى كثير من الأوقات والأزمنة إلى وسائل تدمير لنفسه ولغيره، ولا يزال يسير فى هذا الاتجاه، وعليه أن يفيق ويرجع إلى الله، ذلك لأنه تعالى قد خلق لنا ما مكننا من إقامة هذه المصانع من أجل حياة طيبة ومستقبل أفضل.

وهذا ما أشار إليه بالضبط القرآن الكريم حين ذكر لنا المصانع كأماكن مشهورة فى حياة الإنسان، وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ الآية (١٢٩) من سورة الشعراء.

ومعنى الآية على العموم أن الله تعالى قد حذر هؤلاء القوم الذين تصوروا أن بناءهم المصانع سوف يساهم فى تخليدهم وابتعادهم عن عذاب رب العالمين.

هذا الحديث صحيح وإن كان موجهاً ووفق ما جاء فى هذه الآية الكريمة إلى قوم عاد الذين كذبوا رسولهم هود عليه السلام، إلا أن معناها يتسع بعيداً عن هؤلاء القوم ليشمل كل البشرية، وفى كل العصور مع اختلاف نوعية هذه المصانع وما تنتجه لأصحابها.

وها نحن اليوم، وفى عصرنا الحاضر نشاهد المصانع الشامخة التى يحاول أصحابها أن تنتج لهم بالفعل ما تصوروا فيه الخلود، مثل مصانع الأسمنت والحديد وكذلك مصانع الطاقة النووية. فسبحان الله العظيم الذى أخبرنا بالمستقبل وحذرنا وإياهم مما سوف ترتكبه أيدينا فيه من أعمال نظن بعدها الغرور!! وكلها أبداً لن تغنى عنهم من الله شيئا، إلا إذا كانوا على صراط مستقيم، وذلك وفق ما أشار إليه ربنا الكريم.

ولكنها النفس البشرية الأمارة بالسوء والتى تأخذها العزة وتسير وراء الشياطين بكل أنواعها وأشكالها وأجيالها !!.

والشىء الذى يلفت الأنظار فيما تحدث عنه المفسرون، أنهم اعتبروا المصانع وكما يقول بذلك الإمام الطبرى فى تفسيره لهذه الآية وكذلك الإمام النسفى. هى ذاتها القصور والحصون.. مع أن اللفظ صريح ومعناه كل ما يقدم عليه الإنسان من أجل تصنيعه، حفاظاً على حياته ومستقبله !!. وذلك لأن كلمة المصانع مأخوذة من الصناعة وفعل يصنع ، وهى لذلك تؤدى المعنى المباشر منها، وكما سبق وأوضحنا، والدليل على ما ذهبنا إليه أن الله تعالى قد ذكر لنا وفى السورة نفسها مظاهر حضارة قوم عاد الذين كانوا ينحتون بيوتهم فى الجبال ويقيمون القصور الشاهقة والأبراج العالية.

** الأسواق .. وفيها يبيع الإنسان ما أنتج:

من يقرأ القرآن ويتدبر معانيه الظاهرة والباطنة سوف يكتشف كل العجب، ذلك

لأن الله تعالى قد خلق الإنسان وهيأ له كل سبل الحياة الطبيعية، كما أرشده كذلك إلى تلك السُبل من أجل الانتفاع بها فى حياته لتحقيق المزيد من عمارة الأرض.

وها نحن نكمل مسيرة الأماكن المشهورة فى حياة الإنسان.. إذ بعد أن أخبرنا ربنا بما كان من أمر تلك المصانع، أخبرنا كذلك بأن هذه المصانع لا بد لها من تصريف ما تنتجه، وأن المكان الطبيعى لتصريف هذه البضائع هى الأسواق، التى نقيمها هنا وهناك ويجتمع فيها الناس من كل مكان من أجل استكمال حاجياتهم وما ينقصهم.

وتلك سنة الله فى خلقه وحتى يظل الإنسان فى حاجة إلى أخيه الإنسان، هذه الحاجة قوامها الأموال والتبادل التجارى والتى يكون مقرها الطبيعى فى الأسواق.

وكما نعرف جميعاً فإن هذه الأسواق قد بدأت بشكل بدائى .. وتمثل ذلك أولاً فى المقايضة كأسلوب للبيع أو الشراء، ثم ظهرت الأوراق المالية.. وكذلك السندات.

وعلى مرور العصور والأزمنة تغير كل شىء فى حياة الإنسان حتى رأينا هذه الأسواق تتعدى حدود البلدان والدول، وبالتالى تحولت إلى مصدر إمداد الإنسان باحتياجاته سواء الزراعية أو الصناعية، بل ومن غرور الإنسان ذاته أن حول تلك الأسواق إلى أماكن يبيع فيها كل شىء، حتى الإنسان ذاته وفى صور متعددة مثل بيع العبيد على سبيل المثال وبيع الأخلاق وخلافه.

وما قصد ربنا سبحانه وتعالى ذلك أبداً.. بل أوصانا بأن نجعل من هذه الأسواق أماكن شريفة لأجل إمدادنا بما نحتاج إليه فى حياتنا.

ويظل الإنسان فى غروره وفى كل عصر.. إذ لم يكتف بذلك، بل جعل من هذه الأسواق أماكن غير شريفة كما ذكرنا من قبل فى كثير الأحيان حيث يبيع فيها ويشترى منها كل شىء، حتى يدمر حياته ومن حوله.

ولقد رأينا وعرفنا، بل وسمعنا وربما شارك بعضنا فى هدم الأسواق التى يباع فيها ما يذهب عقل الإنسان ويحط من قدره!!.

ولو أننا اتبعنا سنة الله فى خلقه وجعلنا أسواقنا أماكن شريفة لتبادل ما لدينا من حاجات وبضائع، لاختلف الحال كثيراً.

وحين نعود إلى كتاب الله الكريم سوف نعرف عن هذه الأسواق أكثر مما ذكرناه لأن الله تعالى علمنا وما زلنا فى حاجة إلى هذا العلم، حيث ذكر لنا ربنا هذه الأسواق فى آيتين فى سورة الفرقان .. وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ﴾ الآية (٧) واللفظ فى نفس السورة فى الآية (٢٠). وفى تفسير هذه الآية وفق ما جاء فى معجم ألفاظ القرآن الكريم أن الأسواق معناها مواضع البيع والكفار قد أنكروا على النبى ﷺ النزول إلى تلك الأسواق فإذا كان الله قد أرسله فلماذا لم يهيىء له كنزاً أو جنة يأكل منها. (١)

والآية الثانية التى جاءت فى سورة الفرقان توضح لنا أكثر ماهية تلك الأسواق ودورها فى حياة البشر، ولعل ذلك يبدو بوضوح فى قوله تعالى فى هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾ (الآية ٢٠).

ومعناها أن الله تعالى قد جعل الأنبياء والرسل أيضاً يتجولون بالأسواق لشراء ما يحتاجون إليه مثلما كان يفعل رسولنا الكريم محمد عليه الصلاة والسلام.

كما أشار القرآن الكريم فى الآية ذاتها.. إلى ما يحدث فى هذه الأسواق من تجاوزات، خاصة من التجار الأغنياء الذين يتلاعبون بأقوات الفقراء مما أدى إلى تحولهم من الشرف إلى الوضاعة.

وهذا المعنى بالضبط ما أشار إليه تفسير الجلالين.. فيما ذكره حيث جاء فيه بالحرف الواحد: «لقد ابتلى الغنى بالفقير والصحيح بالمريض والشريف بالوضيع».

هذا الابتلاء هو بعينه ما يحدث فعلاً داخل كل الأسواق التى خلقها رب العالمين كأماكن مشهورة لخدمة الإنسان ذاته إذ يجد كل ما يحتاج إليه متوفراً أمامه ليحصل عليه سواء بالمقايضة أو بالمال.

ولكننا وكما ذكرنا قد بدلنا كل شىء وبالتالى حولنا هذه الأسواق إلى أماكن لا نرغب فى ارتيادها إلا فى ظروف بعينها، ذلك لما نراه ونسمعه فى تلك الأسواق وما

(١) معجم ألفاظ القرآن الكريم - ج١ .

يقع فيها من تجاوزات لا يرضى عنها ربنا الكريم ، وهى تخالف حتى ما جاء فى التفسيرى اللغوى لهذه الكلمة، إذ من المعروف أن كلمة سوق مصدرها فعل ساق، سوقاً وسياقة. ومعناها: حثه من خلفه على السير، ويقال كذلك ساق الله إليه خيراً ونحوه. أى بعثه وأرسله، والتسوق يعنى البيع والشراء. (١)

** الحصون والملاجئ والمغارات.. للحماية:

هذه الأماكن المشهورة فى حياة البشر وما جاء بشأنها فى القرآن الكريم تكمل بعضها البعض، إذا ما تدبرها كل إنسان منا، وكلها تصب فى طريق توفير وسائل الراحة والحياة الرغدة للإنسان ذاته.

ونحن نتوقف هنا أمام هذه الأماكن التى علم الله تعالى الإنسان من أجل بنائها لحمايته من أعدائه ومما يحيط به من مخاطر ! .

إذ أن ذلك الإنسان بعدما هيأ الله له الأرض لعمارتها فبنى بها البيوت والقصور والأسواق، كما كان عليه كذلك ووفقا لمشيئة رب العالمين أن يفكر فى أماكن أخرى لحمايته من الأعداء، فأقام الحصون والصياصى والملاجئ والمغارات، وكلها أماكن جاء ذكرها فى القرآن الكريم.

ومن عجيب ما قرأنا عنه فى كتب التاريخ أن الإنسان ظل حريصاً على الإنفاق ببذخ على هذه الحصون وتلك القلاع.

ليس ذلك فقط، بل واتخذ منها علية القوم مساكن يقيمون بها، ليس من أجل حمايتهم من الأعداء بل وحمايتهم كذلك من رعاياهم ! !

كما وظفوا عقولهم وعقول حكماء القوم معهم وكذلك علماءهم لأجل البحث عن أماكن معينة كى تصلح لبناء هذه القلاع وتلك الحصون والملاجئ.

ولذلك نجد أن أشهر هذه القلاع وكذلك الملاجئ والمغارات قد ارتبطت فى تاريخ البشرية ببعض الشخصيات المهمة وكذلك ببعض الأمم والشعوب.

---

(١) المعجم الوجيز - مصدر سابق.

ويؤكد علماء التاريخ أن العصور الوسطى كانت من أزهى عصور بناء القلاع والملاجئ والحصون، وفق نظريات تحقيق الأمن والأمان .. لما كان يتوفر لها من سبل المقاومة والصمود أمام الغزوات.

وبطبيعة الحال ووفقاً لتطور الأزمنة فقد مرت هذه الحصون وتلك القلاع وكذلك الملاجئ والمغارات بمراحل متعددة، إذ أقيمت فى بداية استخدامها بشكل بدائى ثم تطورت حتى أخذت أشكالاً متعددة من حيث القوة والاتساع والقدرة على المقاومة.

وفى عالمنا العربى وكذلك فى أوربا هناك قلاع مشهورة بدرجة كبيرة من حيث كونها شهدت أحداثا سياسية أو عسكرية ساهمت بدورها فى تغيير مسار التاريخ، كما كانت فى الوقت نفسه شاهداً على عصر قوة الحكام ومدى ارتباطهم بالعلم والعلماء والجاه والسلطان.

هؤلاء العلماء الذين كانوا هم طليعة تفكيرهم فى تنفيذ هذه الحصون بما يسمح بصمودها على مدار السنوات والدهور حتى رأينا أن هناك قلاعاً يصل عمرها إلى آلاف السنين وما زالت بصحتها وقوتها، بل وأصبحت تمثل لأهل هذا المجتمع أو ذاك إحدى العجائب التى يشاهدها الأبناء كرمز لعظمة أجدادهم، سواء من حيث عظمة التشييد أو قوة البناء أو مكانها المتميز أو من حيث اتساعها وضخامة بنائها .

ورغم انحصار أهمية تلك القلاع فى عصرنا الذى نعيش فيه الآن إلا أن الملاجئ والمغارات لا تزال تلعب دورها القديم خاصة فى أوقات الحروب والأزمات.

وما نود أن نشير إليه أن المغارات فى أغلبها كانت من صنع الطبيعة وهى كثيراً ما توجد فى المناطق الصحراوية أو المتاخمة للصحراء، وما كان على الإنسان إلا أن يستخدمها، مثلما حدث معه فى استخدام الكهوف التى نحُتت بشكل طبيعى فى جوف الجبال.

أما الحصون والملاجئ فهى دائما من صنع الإنسان لتؤدى له وظيفة مهمة فى مجال الحروب إما لحمايته من أعدائه أو لاستخدامات أخرى كثيرة تحدثنا عن بعضها آنفاً.

ولقد احتفل القرآن الكريم بهذه الأماكن وأشار إليها ربنا سبحانه وتعالى فى هذا الكتاب المبين، ففى سورة الحشر .. أشار القرآن الكريم إلى كلمة الحصون فى آيتين، الأولى ذكرت الحصون مباشرة وذلك فى قوله تعالى :﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾ الآية (٢).

وكلمات هذه الآية واضحة المعانى والمقاصد، حيث ظن مجموعة من أهل الكتاب وهم بطبيعة الحال كانوا من اليهود الذين كانوا يسكنون خيبر أن حصونهم العالية والقوية سوف تمنع عنهم عذاب الله تعالى، وإمكانية عدم تغلب المؤمنين من المسلمين آنذاك عليهم حتى وهم بداخل تلك الحصون القوية. وقد ألقى ربنا تعالى فى قلوبهم الرعب مما جعلهم يختلفون مع بعضهم البعض خوفاً من الموت أو الوقوع فى الأسر، فتمكن منهم المسلمون وبالتالى خرجوا من هذه الحصون مهزومين.

والمعنى أيضا واضح فى هذه الآية فيما يخص الهدف الذى من أجله يقيم الإنسان هذه الحصون، والإمام الطبرى يؤكد فى تفسيره لهذه الآية: أن أتباع رسولنا الكريم ظنوا أن هؤلاء المشركين من أهل الكتاب لن يخرجوا من مساكنهم ومنازلهم وهم داخل حصونهم التى بنوها للدفاع عنهم، ولقد ألقى الله تعالى فى قلوبهم الرعب فتمكن رسول الله وأتباعه من دخول هذه الحصون وإجبارهم على تركها.

ثم جاءت كلمة « محصنة» مرة واحدة وفى نفس السورة الكريمة فى الآية (١٤) وفى قوله تعالى: ﴿لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ والمشار إليهم فى هذه الآية هم أيضاً يهود خيبر الذين بنوا حصونهم فى المدينة أو يثرب من أجل أن تحميهم وهم فى ضلالهم المبين خوفاً من المسلمين الذين تغلبوا عليهم بإرادة الله، وبالتالى لم تمنعهم تلك الحصون من الهزيمة وترك ديارهم.

ويؤكد لنا معجم ألفاظ القرآن الكريم أن القرى المحصنة ما هى إلا قرى منيعة فى الحماية وكأنها فى حصن، وخير دليل على ذلك ما كان من أمر حصونهم فى خيبر وما كان من أمر المسلمين تجاه هذه الحصون.

ثم جاء حديث آخر للقرآن الكريم عن الحصون بمعنى الصياصى.. وذلك فى سورة الأحزاب فى الآية (٢٦) وفى قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ والصياصى وفق ما جاء فى تفسير الجلالين معناها: الحصون.. ومفردها صيصة، والمقصود بالحديث فى هذه الآية هم بنو قريظة.. الذين قذف الله فى قلوبهم الرعب وحتى لا يظنوا أن هذه الحصون العالية والمنيعة سوف توفر لهم الأمان.

وواضح من سياق هذه الآيات التى مرت علينا .. أن اليهود كانوا من أوائل الشعوب التى أحسنت إقامة الحصون والقلاع ، نظراً لإحساسهم بالدونية والخوف من البشر.

أما فيما يخص المغارات والملاجئ فقد حدثنا عنها ربنا تعالى فى سورة التوبة وفى قوله تعالى فى الآية (٥٧) : ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾.

وواضح من ظاهر معنى الآية أن الملاجئ والمغارات قد صنعها الإنسان كى يهرب إليها عند تعرضه لأى عدوان.

وفى تفسير القرآن الكريم أن المغارات: هى سراديب تحت الأرض والملجأ: هو كل مكان محصن يلجأون إليه.

والمقصود فى هذه الآية كانوا هم فئة من المنافقين من أهل المدينة الذين أخذوا يحلفون بأنهم مع المسلمين ولكنهم كذبوا على الله ففضحهم فى هذه الآية الكريمة.

** الغائط .. عندما يخلصنا من الشرور.

ونختتم هذه الجولة فى الأماكن المشهورة والمرتبطة بحياة الإنسان .. بالحديث عن الغائط.. وهو ذلك المكان الخلوى البعيد فى الصحراء والذى كان يتخذه الأعراب وما زالوا وكذلك سكان الصحراء لقضاء حاجتهم فيه .

ويبدو أن كلمة الغائط قد جاءت من فعل غوط أى ابتعد، وهى على أية حال ما

زالت تتردد على ألسنة بعض العامة والذين يقولون «الغيط» وهم يقصدون بذلك الأرض الزراعية البعيدة عن الصحراء.

والغائط: هو ذلك المكان الذى يختاره الإنسان بإرادته كى يقضى فيه حاجته، بشرط أن يكون آمنا ومستتراً وبعيداً عن الأعين، وذلك حتى يستطيع الإنسان أن يتم هذه العملية بسلام وأمان،، مخرجاً ما فى بطنه من فضلات لم يعد الجسم يستفيد منها وبالتالى وجب إخراجها فوراً.. ولقد اكتشف الأطباء هذا الأمر وأوصوا به.

وإذا ما نظرنا نحن فى عصرنا الحاضر لمسألة الغائط ومكانه.. فإنه ونظراً للتطور وزيادة أعداد السكان وانخفاض أعداد أماكن الغائط، فإن الإنسان قد لجأ إلى نقل هذا الغائط فى داخل منزله وهو ما نطلق عليه نحن حالياً بيت الراحة أو «التواليت»!! مع المزيد من التطور فى استخدام المياه للنظافة وخلافه.

إذن الغائط أو بيت الراحة هو ذلك المكان الذى يساهم كثيراً فى تخليص الإنسان من فضلاته الزائدة حفاظاً على صحته.

ولقد أخبرنا ربنا تعالى بموجبات التعامل مع هذا الغائط والذى يستلزم استخدام المياه للتنظيف بعد عملية الإخراج هذه، وحتى يكون الإنسان، منا جاهزاً للدخول فى الصلاة.

والآية القرآنية التالية سوف تخبرنا بذلك وأكثر.. إذ قال الله تعالى فى سورة النساء وفي الآية (٤٣): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلا جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾.

إذن الغائط ووفق ما جاء فى تفسير هذه الآية: هو ذلك المكان المعد لقضاء الحاجة، والآية فيها شروط كثيرة لا بد من اتباعها من أجل أن تصح الصلاة، من أهمها الطهارة بالماء وإن لم يجد الإنسان ذلك الماء، فقد أمرنا ربنا العظيم بالتيمم، باستخدام التراب الطاهر، هذا التيمم هو سبيلنا إذا ما جئنا من الغائط ولم نجد ماء للدخول فى الصلاة.

وفى سورة المائدة فى الآية (رقم ٦) حديث مشابه عن الغائط وضرورة استخدام الماء للنظافة من أجل الصلاة وإذ لم يجد المسلم هذا الماء فعليه أيضاً بالتيمم.

معنى ذلك أن هناك ارتباط كبير بين التخلص من فضلات ما فى جوف الإنسان وبين ضرورة استخدام الماء من أجل تنظيف مكان الإخراج، وذلك حفاظا على صحة الإنسان وتأهيله لأداء العبادات بدءاً بالدخول فى الصلاة.

ولسنا فى حاجة إلى التأكيد مرة أخرى على أهمية الغائط أو مكان قضاء الحاجة أو بيت الراحة فى حياتنا، والذى حولناه فى كثير من الأحيان ووفق الإمكانات إلى أشبه ما يكون بصالون به كل ما يحتاج إليه الإنسان، كما ألحقنا به حماماً نستخدمه فى تنظيف أجساماً مما علق به من أوساخ أو أتربة.

وسبحان الله العظيم الذى خلق لنا كل شىء من أجل راحتنا ومن أجل صحتنا ومن أجل أن نكون على درجة كبيرة من النظافة.

ومع ذلك ينكر بعضنا هذه النعم ولا يوفى خالقها حقه فى العبادة.